الركض في ساحة خراتيت :
لا أحد يحصي عدد الشهداء !

اسحق لاؤور

«يشبه الشرق الأوسط فيلماً من أفلام فيلليني، ولا يشبه أفلام انغمار برغمان، العنف والغضب رهن الإشارة، دائماً»
عاموس عوز، «غارديان»، ٢٥ /٧/ ٢٠٠٠ (مباشرة بعد فشل كامب ديفيد)

لي رجاء في البداية : أرجو أن يتنبه قراء هذا المقال لتواريخ الاقتباسات. أحياناً ما تكون قريبة من بعضها؛ فمقال مكتوب وسط طفرة الإحساس بـ «نهاية الصراع»، بدافع من نوع من السجود الغبي لايهود باراك و / أو من خلال استخفاف بمنتقدي الذهاب إلى كامب ديفيد في صيف ٢٠٠٠، يختلف بروحه عن مقال مكتوب بعد ذلك بأسبوع، بدافع من كراهية كبرى لعرفات، «من أتلف» نهاية الصراع، التي كادت تجيء. مهم كذلك من أين يأتي الاقتباس. عندما يكتب عاموس عوز للغارديان، فهو يفكر بالليبرالي الإنكليزي، في أكسفورد أو كامبريدج. إنه متفائل، وحذر في تصاويره العنصرية، حتى بعد «حادثة القتل» في رام الله التي كانت الإشارة على «الزعزعة من سفك الدماء» (كان تعداد قتلى الفلسطينيين آنذاك تجاوز المائة). وعندما يكتب لصحيفة «نيويورك تايمز»، يستخدم تعابيره «القديمة والجيدة»، عن الأرواح والشياطين، المستمدة من مصنع القولبة، بواسطة «كيتش» ميلودرامي، لأنه يعرف،

خاص بـ « الكرمل »

مثل كاتب نصوص جيد، أو موجه إعلامي قومي، إلى أي جمهور يكتب هذا المقال.

كذلك، فإن أرقام القتلى جديرة بأن تنتصب من خلل هذا «المفهوم ضمناً» في هذه القراءة. كلهم ينتمون إلى إنكار الكارثة الفلسطينية. كانت عملية الخضيرة في أواخر نوفمبر قاتلة، راح ضحيتها اثنان، أما قتل خمسة مواطنين من قلقيلية مباشرة بعد ذلك فكان «حادثاً اعتيادياً»، وفي أحسن الحالات، قصة «نجاح لقواتنا». كان بالإمكان الحديث عن دور المراسلين العسكريين، واختفاء الحوار في تقديم الأخبار. يسأل مقدم البرنامج أياً من روني دانيئيل أو ألون بن دافيد : «هل ينوي جيش الدفاع الرد في إحدى الليالي؟» ولا بد للإجابة من أن تتضمن دائماً «نعم، بالتأكيد»، «هل هذا صعود مرتبة أعلى؟»، «نعم، بالتأكيد»، عندها، وبعد الـ «نعم، بالتأكيد» الثانية أو الثالثة، يواصل المراسل العسكري نقل كلمة الجيش، كما فعل مقدم البرنامج، كما المذيع في الراديو، كما المحلل السياسي، كما أمنون ابراموفتش، أو اهود يعري، أو أريه غولان، أو ميكي حيموفتش، مع ابداء القلق على «مصير شعبنا»، بالطبع، وبقية الملاذات الأخرى التي يلجأ إليها الوطني، بما في ذلك انكار الكارثة والجرائم المحيطة. هؤلاء هم مستنسخو القوة من النوع المنحط، وناسخوها الاوتوماتيكيون. ما تداعى بالنسبة للإعلام في الحرب الأخيرة لم يكن سوى تصوراته الذاتية، كأنها لم تعد كما كانت في «العهد البن غوريوني». كل من سجّل امنون ابراموفتش لنفسه بالفيديو أمكنه مقارنة الدور الذي يلعبه هذا المحلل، مثلاً، مع تنميط مشابه للأخبار في أيام بن غوريون : «دكتاتور مصر»، و«الدكتاتور المصري»، الخ. بإمكان كل راغب بالتوسع، التأكد بالضبط متى عاد التعبير البائس «المخربون» إلى لغة الأخبار. دفعة واحدة.

ما برز أكثر من أي شيء آخر في الإعلام كان اجتهاده في الحصول على دعم من بيت المثقفين العجزة. توجه ملحق «هآرتس» لمختلف أنواع المثقفين ليقوم بتنميط «ارتباك اليسار»، اختبأ معظم من قابلهم في البيت عندما بدأت حرب لبنان، قبل عشرين عاماً تقريباً. غالبيتهم كانت «مرتبكة» آنذاك أيضاً. لم يكن يرمياهو يوفيل، على سبيل المثال، «يسارياً» مرة، باستثناء نوع من التماثل النرجسي بينه وبين سبينوزا، عن طريق وساطة «السلام الآن» : لو كان سبينوزا يعيش في أيامنا لكان بالتأكيد عضواً في «السلام الآن» سوية مع يرمياهو يوفيل. في كل الأحوال، عندما تنشأ الحاجة لخلخلة اليسار، يتجندون لليسار لكي يخلخلوه. ومقالات عاموس عوز في خارج البلاد نشرت أولاً من دون الإشارة لمواقفه السياسية. بعد ذلك، وفي أوج الحرب، حرص على منح نفسه لقب «من مؤسسي سلام الآن»، وبالذات، وعندما كانت كتابته أسوأ من صراخ العامة في ملعب كرة قدم، حرص على الإشارة إلى كونه من مؤسس «السلام الآن»، الآن في أوج أيام تأييده للحرب.

جرى تجنيد الرأي العام، منذ انهيار مغامرة كامب ديفيد في أواخر يوليو ٢٠٠٠، بواسطة دعم قدمه «المثقفون» للصحافيين. وإذا رغبتم، فإن سَلسلة الأمور لا تعمل

بصورة مباشرة : فالقناص الذي يطلق النار على فتى متظاهر، ليس بحاجة لمقابلة في الصحيفة مع البروفسور مناحم برينكر، لكي يقول للمراسل ببث مباشر «أنزلت واحداً آخر». ولكن لو قامت الدنيا في اليوم التالي على هذه الجملة التي قيلت على الهواء، لفكّر قائد القناص مرتين، ولو اتصل اثنان ـ ثلاثة من أصحاب جائزة اسرائيل بمقدمة البرنامج في الراديو، معبرين عن استنكارهم الشديد، كما يفعلون في مسائل تكاد تكون عادية، وحتى لو أن أسّاكشير، الرجل الذي وضع نظام الضوابط الأخلاقية للجيش دون أن يشير فيها ولو بكلمة واحدة إلى الاحتلال، اتصل وقال كلمة عن «لا تقتل»، لاكتسب «القانون» المهم إلى هذا الحد في الشيفرات الأخلاقية في مثل هذه الحالة، دلالات أخلاقية، ذلك لم يحدث. وحدث العكس: حصل الصحافيون، الهوامش المنخفضة للعالم الثقافي، على الدعم من السلوك المشين للمثقفين، ومن حين لآخر تراكض نفس الصحفيين لكي يبنوا السلوك المشين، وينمطوه كمصطلح إعلامي ـ «ارتباك اليسار» ـ وهم الذين منحوا الدعم للسياسيين، ولا يجب أن ننسى التحريض في الحث على «رد فعل ملائم» من جانب مقدمي البرامج، والمذيعين والمراسلين؛ ولا يجب أن ننسى الكذبة الكبرى التي طورتها الصحافة عن «تبادل ثقيل للنيران» : نار الرشاشات الأوتوماتيكية، في أخطر الحالات من جهة، ونار صواريخ ورشاشات ثقيلة ومروحيات ومدافع من الجهة الثانية. على هذه المذبحة، على ميدان الرماية هذا، أطلق الإعلام اسم «تبادل للنيران» ـ والسياسيون هم الذين منحوا بـ «تصويت في مجلس الوزراء» الدعم لتحويل المتظاهرين إلى مرمى جماعي، بمن فيهم البروفسور شلومو بن عامي، المختص بالفاشية والوزيرة البروفسور يولي تمير، المختصة بالتعددية الثقافية.

لم يحمل «الشارع» التحريض ضد الفلسطينيين إلى أعالي السلطة التي ردت بسبب الشارع. لم تقع حرب بسببها تبين بهذا الوضوح النقيض التام للعملية. وأي هتاف بـ «الموت للعرب» في ملعب كرة قدم لم يُشئق من «رؤى» عنصرية محسوبة أو تربية عمرها سنوات. تلقت العامة في الملعب وفي الشارع درساً جيداً مما شاهدته في الأخبار، إذ ليس هناك أسرع وأسهل من إنزال «الموت بالعرب»، لكن العامة كانت أقل فظاعة من قرارات الحكومة ومجلس الوزراء التي تم تنفيذها في نفس الليلة وكان معناها الوحيد هو الموت للعرب. لذلك، يجب توجيه النداء المنطوي عليه هذا المقال نحو ما يسمى «مثقف اليسار الصهيوني». وُلدت هذه الفئة من المثقفين، الذين أريد الاشتغال بهم هنا، من داخل انكار الجرائم المنفذة بالفلسطينيين منذ ١٩٤٨ والسنوات التالية لها، مروراً بالحكم العسكري ومصادرة الأراضي والاعتقالات الإدارية. لعل هذه القضية ـ التغييب ـ أبرز مركّب في صلف وغرور مؤيدي رحلة باراك الغيبية إلى كامب ديفيد. مهما يكن من أمر، فإن مثقفي اليسار الصهيوني العجزة لا يستطيعون النظر نحو الفظائع والقول «نحن ضد ذلك». عندما تحدثوا فرادى، كل شخص في مقاله، أو المقابلة

معه، رددوا بالضبط أقوال السلطة، بدون أية اضافة شخصية. وعندما جرؤوا، بالتالي، في السابع عشر من نوفمبر على التوقيع على عريضة قالت العكس مما كتبوه طيلة الوقت، قالوا ذلك سوية، كأنهم ثُلة جبناء. لم يسألهم أحد «ماذا تغير؟»، وواصلت الصحافة مهمتها بقوة الدفع الآلية التلقائية. وعن ذلك هذا المقال. كم تبدو هذه المسألة مختلفة، إذا قارنا الاستهتار الذي تميز به سلوك ثلة الجبناء هذه مع الإعلان الذي بادر البروفيسور داني غور إلى نشره في «هآرتس»، مع سقوط أوائل الشهداء. كم كان جراح القلب هذا جريئاً في سعيه لرفع صوته.

١ - «أحصوا الموتى» ...

في حرب لبنان، التي استمرت منذ ١٩٨٢ حتى ١٩٨٥، قتل أكثر من ستمائة إسرائيلي ـ لم نتوقف عن سماع هذا الرقم في مظاهرات السلام. في غضون الشهرين الأولين على الإنتفاضة الحالية قتل حتى الآن ما يقارب الثلاثمائة فلسطيني، من بين مجموعة سكانية أقل بكثير من تلك الموجودة في دولة إسرائيل، أي ثلث ما فقدته إسرائيل خلال ثلاث سنوات، إضافة لآلاف الجرحى ومئات المعوقين، وهناك مَنْ يقول الآلاف. كانت الأغلبية الساحقة من القتلى من الأولاد والفتية، لكن مثقفي «اليسار الصهيوني» صمتوا، وبإصرار. كان بمقدور لبئة رابين المريضة أن تدعو باراك من سرير موتها لوقف القتل. بينما لم يكن بمقدور عاموس عوز مثلاً اسماع صوته ولو مرة واحدة. وهكذا، فإن قضايا كان يتوجب نقلها أمام المحكمة الدولية في لاهاي تمرّ مرّ الكرام على جدول الأعمال كأنما المقصود رش المتظاهرين بالمياه الملونة، أو رميهم بالحصى. لا أحد يحصي عدد القتلى الفلسطينيين. اتصلت غلاظة القلب هذه خلال السنوات الأخيرة بالغرور في كل ما يتصل بعملية أوسلو. «انتصرت الصهيونية»، «انتصرت البراغماتية»، و«انتصر الحمائم» : أثبتت النخبة صدقيتها. بدأ ذلك بالتأكيد من قبل، لكن يضيق المجال عن البحث في القيمة الأخلاقيةَ للشعار «الاحتلال مُفسد»، أو «المناطق هي ورقة مساومة». وعموماً، منذ اتفاقية أوسلو بُني الشبيه باليَسار الحمائمي في إسرائيل، من دون فلسطينيين. «هم هناك ونحن هنا». وحقيقة أن «هناك» محكوما لـ «هنا» طُمست تماماً عبر أكذوبة «نهاية الصراع».

بعد انهيار كامب ديفيد في الصيف الأخير، بث التلفزيون الرسمي الهولندي لقاء بين أ. ب. يهوشع والكاتبة الفلسطينية من رام الله، ليانة بدر، جلب زميلنا ران هكوهن شريط اللقاء من محطة التلفزيون تلك، وأقنع هيئة تحرير أسبوعية «هعير ـ المدينة» بنشر أجزاء من نص الحديث. نشر الحديث في «هعير» بعد أسبوع من القتل بالقرب من المسجد الأقصى.

بدر مولودة في القدس، لجأت للأردن، ومنه للبنان، ثم إلى تونس، ومنها سُمح لها بالعودة إلى رام الله. قُدّم يهوشع في البرنامج باعتباره «ناشط سلام يكاد يكون

ملاحقاً في البلاد ليساريته». بنية الكذب هذه الصادرة عن دعائيي المؤسسة تكرر نفسها، كذلك عاموس عوز، إذ عرّض نفسه كملاحَق في السابق جراء تأييده قيام دولة فلسطينية. حتى بناته لوحقن بسبب مواقف الأب. لم يلاحقهن أحد، بالطبع ! ايجاد الملاحقة مربح على ما يبدو جيداً لإثبات أن «الفلسطينيين، حتى مع اليسار غير قادرين على التدبر» فحسب، أي أن هناك إجماعاً قومياً في إسرائيل ضد «الرفض الفلسطيني»، بل هو متصل بالحاجة لشرح «الإنقلاب الداخلي الذي مرّت به إسرائيل» : من كانوا مطارَدين بسبب يساريتهم في «ماضي إسرائيل المظلم»، يعدون اليوم أشخاصاً مركزيين في الثقافة. لا تستهتروا بهذا الوصف البنيوي، فهو يتكرر كثيراً إلى جانب أنماط تغييب مشابهة في الدعاية الحمائمية. [٢].

وهذا ما قالته بدر في التلفزيون الهولندي، شهراً واحداً قبل اندلاع الإنتفاضة : «لا دولة لي، ولا أي احساس بالأمن، ومن حولي يسرقون أرضي كل الوقت ...». وهنا قاطع أ. ب. يهوشع أقوالها قائلاً : «لا تتظاهري كأنكم مساكين أكثر مما أنتم حقاً. لديكم مشاكل، ولكن...». حاولت بدر انهاء الجملة التي بدأتها، لكن مؤلف «ازاء الغابات»، الذي سبق له أن قطع لبطله العربي اللسان في قصته الشهيرة، وبعد ذلك أعطاه لساناً لكي يقتبس.. بياليك (في «العاشق»)، يواصل الكلام بدلاً منها :

«لديكم شرطة، ولديكم منذ الآن ما يشبه الجيش الخاص بكم، عندما أذهب لرام الله أرى رجال الشرطة الفلسطينيين بالكلاشنيكوفات الخ. ولديكم عرفات، الذي يُستقبَل في العالم كله كما لو كان رئيس حكومة».

لا تسحبوا أكتافكم استخفافاً بغباء المتكلم. حاولوا أن تقرأوا في هذه الأقوال المنطق البنتوستاني، لكي تفهموا ماذا حدث في الجمهور الإسرائيلي حتى الإنتفاضة الأخيرة.

اشتكت بدر من الحظر على دخول القدس (وهي مسألة غُيّبت تماماً في السنوات الأخيرة) : «بالنسبة لي فهي نوع من المنفى الجديد، هذه ليست عودة للبيت. أنا ابنة هذه المدينة، فلماذا أنا في المنفى ولماذا يحظر عليّ الدخول بدون تصديق منكم؟ أعتقد أن كل هذا الاختناق، والإحساس بأنك في نفس المكان مرة أخرى، بكل المشاكل والعنف المحيط، يسد الطريق أمام مشاعري ...». حاول يهوشع مقاطعتها عدة مرات، وبالتالي سيطر على الحديث بواسطة المونولوج الذي يحظر نسيانه، ولو بسبب التاريخ فقط، الأول من سبتمبر ٢٠٠٠، قبل اندلاع الإنتفاضة بأقل من شهر.

«أنا الآن غاضب حقاً، أنا الآن غاضب حقاً، لأنك لست منطقية. وقعت هنا إنتفاضة. وفي كل يوم يُجرح فلسطيني، ويُجرح إسرائيليونَ أيضاً، والحرب مستمرة كل الوقت. اختفى الارهاب منذ ثلاث ـ أربع سنوات. كل شيء هادئ، لا مظاهرات، ربما القليل هنا وهناك، ولكنها تقلصت، إذن، لا يمكنك القول إنه نفس الوضع. هناك تحسن ...».

للحظة لم يخطر بباله الإصغاء لها أو الردّ عليها. لا حوار له معها. فهو يمثل دولة اسرائيل، يمثل الهوية الجمعية التي ينتمي إليها، ومحط تماثله. إنه لا يستطيع

الإصغاء لها، فليس لهذا الغرض هو موجود هناك. فهو ليس وحده. إنه رسول الهجرة في الوكالة بروحه. بعد ذلك قد يجلس لكتابة رواية عن شاعرة فلسطينية ويضع في فمها نصاً سهلاً، شيئاً ما قومياً، يجعلنا نكون «يهوداً»، في مواجهتها بالطبع، ويتحدث عن مصالحة بين القوميتين، ولكن حديثها عن الأرض، والحاجز، والاختناق، لا يمكنه سماعه (عامي أيلون، رئيس «الشاباك» السابق يتحدث عن ذلك، أما أ. ب. يهوشع، في هولندا أو إسرائيل، فلا يستطيع). وها هو يواصل :

«تعرفون أن ما يقارب ١٨٠٠ فلسطيني وحوالي مائتي إسرائيلي قتلوا في سنوات الإنتفاضة. انظروا ما حدث في كوسوفو أو سراييفو أو البلقان، في حرب من ثلاث إلى أربع سنوات، قتل ٤٠٠ ألف شخص هناك. (...) أقول ذلك لأنني أرغب في وضع الأمور في نصابها الصحيح. قوموا بإحصاء الموتى، يجب احصاء الموتى، ذلك هام جداً ..».

بعد ذلك بستة أسابيع، وبيومين على يوم الغفران (كان قد سقط بضع عشرات من القتلى)، ورد في أخبار الصباح في القناة الثانية باقتضاب نبأ زيارة تعزية أدباء عبريين لدى عائلة من الناصرة، فقدت ابنها برصاص القناصة. أظهر المقطع القصير أ. ب. يهوشع يتحدث للأب الثاكل بكلمات التعزية : «الآن دخلتم إلى الوعي الإسرائيلي، لأن الكل ملّ عرفات والفلسطينيين. الآن دخلتم إلى الوعي». قبل ذلك كان قد باع بدر الاحترام الكبير الذي يحظى به عرفات كعزاء عن فقدان أرضها، حريتها. والآن يبيع الأب الثاكل من الناصرة عداء الإسرائيليين لعرفات كعزاء على موت ابنه. لست معنياً بغباء أ. ب. يهوشع ولا بانسداده العاطفي أيضاً، بل بالاستعلاء الكولونيالي الكامن في هذه الجملة. فالمعارك في الناصرة، بموجب رواية يهوشع، لا علاقة لها بالأحداث في المناطق المحتلة. فقد توجهوا للشوارع للتظاهر هكذا، «بلا سبب»، والآن، بعد أن «ملّ الجميع السلطة في المناطق»، لأننا كلنا مللنا عرفات، كذلك الأب الثاكل، الذي من المؤكد أن شعوره يتحسن لسماعه كلمات العزاء، الآن فقط سنفرغ قليلاً لكم، يا «عربنا».

٢ - مصلحتهم هي مصلحة باراك، وبالعكس

لو قاد هذا القتل الجماعي في صفوف الفلسطينيين «بيبي» أو شارون، لانطوت بلادة اليسار الصهيوني ولاستمعنا لخطاب آخر، قد يكون انفعالياً أحياناً، وربما مليئاً بالأسطورة «المُحكَمة». لا يوجد ما هو أفضل من النموذج الذي قدمته التصريحات المتلاحقة ضد حكومة نتنياهو بعد أحداث «النفق»، في الأسبوع الأخير من سبتمبر ١٩٩٦. على مدار يومين من القتال قتل ١٦ اسرائيلياً وأكثر من ثمانين فلسطينياً. لكن اصبع اتهام «المعسكر المغلق» وجهت فقط ضد نتنياهو، لا ضد عرفات بأي حال من الأحوال، لم نسمع كلمة واحدة عن عرفات، فقد كان المحرض «بيبي». وهل هناك ما هو أفضل من افتتاحية «هآرتس» :

«جاء الانفجار الفلسطيني العنيف رداً على فتح نفق الحشمونئيم في الحي الإسلامي في القدس، لكنه يعكس خيبة أمل جوهرية من عملية السلام. الإغلاق، البطالة، الفقر، البنى التحتية المتداعية، والتدخل المتواصل بحياة السكان، لم تعد مجرد معاناة من يمضي نحو مستقبل أفضل، بل وضعاً لا مخرج منه» «هآرتس»، ٢٧ / ٩ / ٩٦).

أين اختبأ «فهم» كهذا بعد إطلاق النار الجماعي على متظاهرين كانوا خرجوا للتو من المسجد الأقصى، عشية رأس السنة، بعد أن تلقى أرئيل شارون اذناً بالتوجه إلى هناك، بعد أن حاول عرفات لدى باراك في «كوخاف يئير» آلا يسمح لبطل صبرا وشاتيلا بالتوجه إلى هناك؟ لم يكن هناك أي «فهم» من هذا القبيل. كان هذا الفهم في أيام نتنياهو كما في أيامنا هذه، نافعاً تماماً، وهو منتشر في ما لا حصر له من أشكال البكاء والاحتجاج على غرار «نتنياهو يهدم الدولة»، التي كانت تعني على الدوام : «يا رب للسلطة اخترتنا، نحن الجماعة الأفضل من «اليسار الصهيوني»...». ويفترض هؤلاء الأشخاص الطيبون، بشكل عام، حتى لو لم يكونوا عنصريين واعين عنصريتهم، وجود تناقض مركزي واحد في سياستنا، بين «الليكود» و «العمل»، أي بين السلام والحرب، أي بين الخير والشر، وهو تناقض يجب على الفلسطينيين أيضاً «ادراكه»، والموافقة عليه وحتى مساعدة «الخير على الانتصار» على الشر، أي تمكين «السلام» من التغلب على «الحرب»، أي مساعدة اهود باراك في التغلب على أرئيل شارون، لأن كل شيء ينحصر فقط في التناقض بين باراك و«بيبي» (= شارون). ولو رغبنا بالمخاطرة بلغة افتراضية أكثر : اجمال التناقضات «التي بداخلنا» هو المطلق الوحيد، وكل ما تبقى تافه، من هنا لا بد للتناقض المركزي «في حياتنا» من أن يكون تناقضاً مركزياً في حياتهم أيضاً. وتنحية الفلسطينيين عن التناقض المركزي بين مصالحهم وبين الاحتلال الإسرائيلي، وتحييدهم عن التناقض بين الاحتلال وبين حياتهم تحت الاحتلال، أي تنحيتهم عن جدول الأعمال بواسطة «جدول الأعمال الواقعي»، أو شيء ما من نوع «اتفاق بيلين ـ أبو مازن» باعتباره نهاية المطاف في المفاوضات، كلها جزء من عملية طويلة بلغت أوجها في اتفاقية أوسلو، وتواصلت بتحويل «ميرتس» إلى حزب «معاد للدين»، أو «طائفي ـ اشكنازي»، وبعد ذلك باختفاء «السلام الآن» ونهايتها في «واجب اليسار» وحتى «واجب الفلسطينيين» مساعدة ايهود باراك لكي ينتخب مجدداً لرئاسة الحكومة، بعد القتل الجماعي الذي أشرف عليه.

أي تبريرات يستخدمها مثقفو اليسار الصهيوني لإلزام الفلسطينيين بابتلاع هذا التناقض الجزئي، المختصر، الكامن في «باراك أو بيبي»؟ باسم الواقعية، بالطبع، الـ «الواقعية السياسية». من بحاجة لدفع ثمن باهظ لقاء الواقعية السياسية؟ هم. من لا يجب عليه أن يدفع البتة لقاءها؟ «نحن». تحت هذا العهر الكلامي تستتر العنصرية.

عشية سفر باراك استعداداً لخطأه الغيبي في كامب ديفيد، أبلغ البروفيسور مناحم

برينكر اليسار الإسرائيلي عبر صفحات «هآرتس» :

«جاء باراك إلى كامب ديفيد مع برنامج سياسي بعيد المدى. لم يسبق لأي قائد إسرائيلي في الماضي أن عرض خطة كهذه على الفلسطينيين. لا يوجد لدى اليسار أي سبب لتوجيه النقد لخطوطه الحمراء» («هآرتس»، «أخلاق البراغماتية»، ١٧ / ٧ / ٢٠٠٠).

بكلمات أخرى، لا يوجد لدى اليسار أي سبب لتوجيه النقد لأنه مستعد لإعطاء الكثير. حسنة تنقذ من الموت. برينكر لا يكتفي بهذا القليل :

«أنا معني بسلام في أرض الواقع، وليس على الورق، لذلك، فإنني ملزم بأن أفهم أن هناك أسباباً موضوعية تفرض على باراك حدود تنازلاته».

كل من يعرف خريطة مقترحات باراك، يعرف أن برينكر كاذب، وأن جميع من باعوا قائمة المشتريات بالنسب المئوية، ٩٠٪ من الضفة الغربية وغير ذلك من الترهات، كذابون. ومن تعلم إحصاء الفلسطينيين سنين طويلة باعتبارهم «تهديداً ديموغرافياً»، أي : كم من الفلسطينيين سيكونون «بيننا»، تعلَّمَ كيف يحصي أيضاً أرضهم بالنسب المئوية، لا كأبناء البلاد. تذكرون «أكبر قدر ممكن من الأرض، وأقل قدر ممكن من الفلسطينيين»؟ ها هو إذن تفسير كذبة النسب المئوية المكشوفة. سيضطر المؤرخون لأن يسألوا ذات يوم إذا لم يكن باراك راغباً بتفجير كامب ديفيد، أم أن ما حدث كان مجرد احباط سياسي. ولكن، ما الذي دفع أشخاصاً مركزيين في حياتهم اليومية، بهذه الطريقة أو تلك، في مجالات عملهم على الأقل، للتطوع وتسليم السلطات المفاتيح القليلة التي بقيت للمعارضة اليسارية ـ هذه المسألة لن يعالجها حتى المؤرخون، مع ذلك يجدر التوقف عند ذلك. يعرف برينكر، باعتباره أستاذاً للفلسفة، أن استخدام التعبير «ظروف موضوعية» قد يخفي وراءه استعراض القوة الوحشي، في القسمة بين «الموضوعي» و «الانتقائي» وفي الطريقة التي يؤدي ذلك بواسطتها.

ما قاله برينكر باستعراض قوة يكاد يكون فلسفياً هو أن الظروف الموضوعية (التاريخ) هي ظروف انتقائية (مشاكل ائتلافية) لدى الجانب القوي (اسرائيل والولايات المتحدة بجانبها) ومن يقرر ما هو الموضوعي هو الجانب القوي، الذي يقدم برينكر لقوّته «القليل من التاريخ»، أي «الواقع الموضوعي». جاء أبناء اللاجئين وغيروا لنا «الواقع الموضوعي» (ولذلك فهو بالتأكيد صامت منذ تموز).

كذلك البروفسور افيشاي مرغليت، حبيب الـ «نيويورك ريفيو أوف بوكس» في كل ما يتعلق بإسرائيل، دفع بذكاء خطوة باراك البهلوانية، هو الآخر تحدث في هذه المقابلة في «هآرتس»، عشية كامب ديفيد، وهو كذلك، مثل برينكر، سمع النقد الموجه لباراك ورفضه، كلاهما استمع إلى ما قالاه في أكثر من موقع عن عوامل التهوّر المغامرة :

«أقوال باراك عن خطوط حمراء لا تهمني حقاً. هذه بلاغة كلامية، ترهات لن تكون ملزمة له فعلاً. تحت هذه الخطوط الحمراء يمكنه أن يدخل إلى الاتفاقية كل ما يرغب بإدخاله (...) يمكن ابقاء ٧٥ حتى ٨٠٪ من المستوطنين في اسرائيل على ستة ونصف بالمائة من مساحة الضفة، ويمكن ابقاؤهم حتى على خمسين بالمائة من مساحة الضفة. («هآرتس»، ١٧ /٧/ ٢٠٠٠).

لماذا يصدّق باراك؟ هكذا، إنه ببساطة يصدّق باراك. على أي أساس؟ على أساس «مصادر عليمة بالأمور» [٣]. في أي حال، وفي سبتمبر، الشهر الذي كان القتل فيه قد بلغ أوجه، نشر في «نيويورك ريفيو أوف بوكس» مقال لأفيشاي مرغليت، «الشخص المهم» على مدار سنوات طويلة في «السلام الآن». بموجب مضمونه ورقّته، يبدو أن المقال مكتوب مباشرة بعد انهيار مؤتمر كامب ديفيد، وقبل الحرب :

«الصراع الممتد منذ مائة عام، كما يصفه ايهود باراك، تقلص في كامب ديفيد بحجم نُواته. ووفقاً لمصادر عليمة بالأمور، فإن النواة لا تخص اللاجئين الفلسطينيين ولا المستوطنين اليهود. وهي لا تمس مشاكل الأمن أو المياه. إنها القدس» (مجلة نيويورك لمراجعة الكتب ٢١ /٩/ ٢٠٠٠).

«النواة لا تخص اللاجئين الفلسطينيين ولا المستوطنين اليهود»، هكذا يكتب الفيلسوف، بهذه الكلمات : «النواة لا تخص اللاجئين الفلسطينيين ولا المستوطنين اليهود».

عندما ارتفع عدد القتلى بصورة ملحوظة، وبعد أن قتل ١٣ مواطناً عربياً من دولة إسرائيل، نشر ملحق «هآرتس» تقريراً حاول أن يبني فيه صورة «يسار حائر». قبل أن نعود إلى ذلك التقرير، الذي لم يقابل أحداً من مئات الناشطين الذين كانوا قد بدأوا العمل ميدانياً، وشاركوا في المظاهرات واللقاءات، يجدر أن نتذكر أ. ب. يهوشع في هذا السياق، خلافاً لآخرين مقتبسين هنا، فإن يهوشع صاحب قلم ثقيل، بقدر ما يبدو الأمر غريباً بالنسبة لأديب. من جهة أخرى، إنه يحب أن يقابلوه. ومن حين لآخر كان يحاول بيع الفلسطينيين النصائح والعظات عبر الراديو، في أيام الدماء التي سفكها الجيش الإسرائيلي. لا أعرف من هم الأشخاص الذين استضافوه في رام الله، عندما قام بزيارتها، كما يقول، لكن من الواضح أن هذه الضيافة تمت على خلفية ما فعله الفلسطينيون باليسار الإسرائيلي الحقيقي بعد اتفاقيات أوسلو، مفضلين عليه «الوجهاء الإسرائيليين»، وبكلمة واحدة : خانونا. المهم أن يهوشع قال في ذلك التقرير من «هآرتس» عكس ما قيل لليانة بدر:

«صحيح. رد فعل اليسار الإسرائيلي وخيبته مفهومة. جلسنا مع عرفات، وكان عرض باراك سخياً، لكنه تجاوز كل الأصول بدافع من الاعتقاد بأنه بالعنف والضغط الدولي فقط يمكنه احراز انجازات كبيرة. هذه هي خيبة الأمل وهو يرتكب خطأ كبيراً

لأن من وقف أمامه هو باراك لا شارون أو نتنياهو، مع اجماع قومي عريض للانتهاء من الأمر» («حيرة اليسار»، ملحق «هآرتس»، ٢٠ / ١٠ / ٢٠٠٠).

وكالعادة، وعلى هذا المستوى من العبادة الغيبية، لم يكن هناك من هو أشد حماساً من عاموس عوز في قول أنصاف الحقائق. أحياناً بدا أن وجوده كشخصية إعلامية متعلق برمته بالقدرة على نفخ البالون الإسرائيلي، بالانكليزية، في خارج البلاد. أرجو أن تنتبهوا لعبادة الشخصية لدى «المثقف». هذه هي أيام «نجاح» ايهود باراك، قبل كامب ديفيد :

«هناك شبه مذهل بين هذه الأيام واللحظات الحاسمة لولادة الأمة الإسرائيلية : نوفمبر ١٩٤٧ (...) وأيار ١٩٤٨ (...) وقف ايهود باراك أمام تحدٍّ بمقاسات بن غوريونية؛ إنه يبدو كمن يخرج لملاقاة التحدي بشجاعة بن غوريون.» (عاموس عوز، «الجراح الرئيسي ملزم بوقف سفك الدماء»، «غارديان»، ١١ /٧/ ٢٠٠٠).

وبعد أن يمط الى حد لا معقول المقارنة بين بن غوريون ومعارضيه داخل الحركة الصهيونية ـ مرة في أوساط المعسكر اليميني المتطرف عشية قرار الأمم المتحدة، وبعد ذلك من جانب بعض المحسوبين على المعسكر المعتدل عشية الإعلان عن إقامة الدولة ـ يصل عوز ذروة اللامبالاة في طفرة شعورية عاجزة عن فهم الكارثة المقتربة:

«يبدو أن ايهود باراك ورفاقه ملزمون الآن بالصراع ضد نموذجي المعارضة هذين في وقت واحد : واحدة صقرية على غرار ١٩٤٧ وأخرى جبانة من نوع ١٩٤٨. لو حكمنا بموجب سلوك السيد باراك، فإن لديه الشجاعة لمجابهة النموذجين. مهما يكن من أمر، فالسؤال لا يخص شجاعته الشخصية والسياسية فحسب، بل ما إذا كان الحمائم في إسرائيل يملكون ما يكفي من طاقة لدعمه، بينما بعض الشركاء الأشد صقرية، أو الأكثر تسلطاً، ينشقون» (نفس المصدر).

مرة أخرى، فالمشكلة ليست في الزعيم بل في «اليسار»، أي الحمائم التي لا تجرؤ وتكاد تكون جبانة، من نوع «معارضي بن غوريون من الداخل». مرة أخرى يُكنّس جانباً النقد الموجه لاجراءات باراك المغامرة، كأنه لم يكن، ولم يتردد، ولم يكن مناسباً :

«علينا أن نخرج الآن، وأن نظهر للداخل وللعالم أن ملايين الإسرائيليين يغمرون رئيس حكومتهم بالدفء وتمنيات النجاح» (ن. م).

من يكتب لهم هذه النصوص ؟ كيف أن نفس الكلمات تتردد في مظاهرة أمام بيت رئيس الحكومة في القدس، وفي أقوال رؤساء «السلام الآن» وفي كتابات أديب «منعزل في النقب»؟.

«امضِ إلى كامب ديفيد ايهود باراك، امضِ بشجاعة وحذر وحكمة ورؤيا وتفهم للآخرين، وبحسك الحاد بالواقع. امضِ إلى كامب ديفيد كما الجراح الذي يخطو بثبات

نحو حلبة الجراحة؛ الحلبة التي فوقها سيُحسم مستقبل إسرائيل ومستقبل فلسطين». (ن. م).

هذه مقالة سطحية لم تكن «الغارديان» لتنشرها لو أنها خصت الحلبة البريطانية. هذه الكلمات الجوفاء، لم تشر لا من قريب ولا من بعيد إلى المشاكل التي يقف أمامها باراك. هذا المقال المحلق، الذي يبدو كخطاب في الساحات العامة، لا يتضمن كلمة واحدة عن المياه والمستوطنات والعراقيل الأكيدة والمحاولة الإسرائيلية في فرض تسوية شاملة بدون التنازل عن المستوطنات في أهم مناطق الضفة (منطقتي بيت لحم ورام الله)، ولا يشير للقدس التي لا تدخل ضمن احصاءات النسب التي «يعطيها باراك للفلسطينيين» من ضفتهم، انها القدس التي تكبر باضطراد وتصل تقريباً حتى البحر الميت، كلمة واحدة عن هذا كله لم يحملها «ناشط السلام الإسرائيلي»، ممثلنا في بريطانيا والولايات المتحدة وألمانيا.

بعد ذلك بأسبوعين، ولم تكن الحرب قد اندلعت، كان عوز ملزماً بأن يبيع قراء «الغارديان» نوعاً من التحليل السياسي (مرات تساءلت إذا لم يكن هذا الإذن بارتكاب البلاهة والنشر في «الغارديان» متصلاً بالاستخفاف الإنجليزي العميق بالانتلجنسيا الإسرائيلية : «ماذا تريدون؟ هكذا هو عقلهم»، كأن محرر الصحيفة يقول لقرائه الانجليز). هكذا كتب عوز في ٢٥ /٧ عندما تبين أن المقال المنشور ١٤ يوماً قبل ذلك كانت له قيمة فقط لدى آكلي السمك والشيبس في مطر لندن :

«ايهود باراك قطع شوطاً طويلاً نحو الفلسطينيين، حتى قبل قمة كامب ديفيد، أبعد بكثير مما قد يقطعه أي زعيم إسرائيلي آخر.

في طريقه إلى كامب ديفيد، كان موقف باراك المعلن حمائمياً للغاية، إلى حد أنه فقد غالبيته البرلمانية، الإئتلاف، بل فقد قسماً من جمهور ناخبيه.

على رغم ذلك، وبينما هو يستعد للطيران، ووراءه جسمه وذنبه، واصل باراك مثل قمرة ربان محلقة، المهم أنه استمر. يبدو أن ياسر عرفات لم يقطع شوطاً طويلاً ووحيداً كهذا نحو الإسرائيليين. لعله لم يكن قادراً، أو أن الحماس المخلص لصنع السلام كان غائباً لديه. (عاموس عوز، «حتى لو فشل كامب ديفيد، فإن هذا النزاع يقف على ساقيه الخلفيين»، غارديان، ٢٥ /٧ / ٢٠٠٠).

افتقد عرفات إلى «الحماس المخلص لصنع السلام». انتبهوا إلى غياب الاهتمام التام بالمشاكل الحقيقية التي كانت تغلي في تلك الأيام تحت الأرض وفوقها. بالنسبة للدعائي الإسرائيلي، فقد كان عرفات ببساطة أقل حماساً من باراك. وإذا سلبت مياههم، ألن يعطشوا؟ وإذا صودرت أراضيهم، ألن يجوعوا؟ وإذا أغلقوا في قراهم ومدنهم، ألن يختنقوا؟ وإذا ضويقوا في الطريق إلى عملهم اليومي في ثلاثة إلى أربعة حواجز كل يوم، ألن يرغبوا بالقتل؟ لكن المقال مكتوب كما أسلفنا للغارديان، وما طلب من عوز

كان شيئاً خفيفاً، ليس انفعالياً أكثر مما يجب، وليس معادياً للعرب أكثر من اللازم. قراؤنا أيها القوموي العزيز ليبراليون مهذبون.

٣ - ألوان الحرب ، ملوّنوها وضباعها

لم تتوقف مسيرة بث الأوهام بشأن سخاء باراك عند المقابلة المنشورة عشية سفره إلى كامب ديفيد، أو المقالين في «الغارديان»، بعد أن تكشفت الرحلة عن مغامرة. تواصلت المسيرة في كل حلبة أمكن فيها بيع الحرب القادمة. ليس مهماً إذا ما كان عاموس عوز عرف أو لم يعرف بوجود مخططات احتياطية للجيش لقمع انتفاضة جديدة. من كان راغباً، عرف بهذه المخططات. فقد ألمح إليها في ما لا حصر له من الأحاديث والتوجيهات الصحفية، حتى في الراديو والتلفزيون. تحدثوا عن دبابات. تحدثوا عن صواريخ. تحدثوا عن مستوى منخفض من الخسائر.

من نيويورك، أرسل دان ميرون، شيخ الدراسات الأدبية العبرية، مباشرة لـ «يديعوت احرونوت»، نفس الصيغة عن سخاء باراك، الذي لم ينوجد له أي اثبات، عميقاً في داخل الحرب :

«في الصراع الحالي فإن إسرائيل محقّة أكثر مما كانت في جميع صراعاتها من يوم خروجها إلى حرب الأيام الستة، وربما كذلك منذ حرب الاستقلال في ١٩٤٨. إسرائيل لا تحارب على التمسك بالمناطق المحتلة ولا حتى على وجود المستوطنات والأحلام عن إسرائيل الكبرى، التي انقطعت عنها غالبية الجمهور الإسرائيلي. كل ما طالبت إسرائيل به هو أن يتم اخلاء المناطق بغالبيتها الساحقة وتسليمها للسلطة الفلسطينية، لكي تقيم عليها دولة مستقلة، في اطار اتفاق ومصالحة شاملة، يتم التعبير فيهما عن بعض متطلباتها الحيوية («علامَ الصراع»، «يديعوت احرونوت»، ٢٤/١٠/٢٠٠٠).

تجند دان ميرون للدعاية عندما كان وضع إسرائيل، كما بدا له من نيويورك، في أسوأ حال في «الإعلام العالمي». مهم أن نتنبه إلى أنه بتدهور الحرب إلى حضيض لم يكن له مثيل منذ سنوات، ظل الحديث يدور عن «سخاء إسرائيلي». وهنا تتملكنا رغبة قوية في سؤال الدعائي من نيويورك صن «المتطلبات الحيوية لإسرائيل»؟ غوش عصيون؟ كريات أربع؟ الحي اليهودي في الخليل؟ بساغوت؟ جيلو؟ غوش قطيف؟ نتسريم؟ كفاردروم؟ الشوارع الالتفافية؟ شارع الأنفاق؟ السيطرة على مياه الضفة الغربية؟ ما هو مهم قوله الآن هو أنه عندما قوضت الحرب «التوقعات» بإنهاء النزاع، احتاج كل واحد من الدعائيين إلى مستوى أعلى من ألوان الحرب على سحنته.

أما عاموس عوز، وفي مقال في «الغارديان» من الثالث عشر في أكتوبر ـ وهو اليوم الذي أمكن فيه استخلاص الحد الأقصى من عملية مقتل جنديين اسرائيليين على يد

فلسطينيين غاضبين في رام الله (وهو يفعل ذلك، فهي فرصته : لم يفاجئه «اللينش»، كما جاء في مقاله، ولماذا لم يفاجأ؟ لأنه سمع المثقفين الفلسطينيين في الراديو والتلفزيون التابعين لهم، كما حكى عوز لقراء «غارديان»، فجأة أمكنه سماع «صوتهم») ـ فكتب هكذا :

«ايهود باراك (...) عرض في كامب ديفيد اعطاء الفلسطينيين أكثر من تسعين بالمائة من الضفة الغربية والاعتراف بدولة فلسطينية مع شرق القدس عاصمة لها. حتى أنه وافق، بأسنان مصطكة (هكذا) أن تنتقل الأماكن المقدسة في القدس المختلف عليها إلى وصاية إسلامية». (غارديان، ١٣ / ١٠ / ٢٠٠٠).

لنعد للحظة للوراء : مباشرة بعد انهيار المحادثات في كامب ديفيد حرص عوز على نشر مقال متلون وشرير وحتى عنصري، في «نيويورك تايمز». كان ذلك هو الإعداد للحرب. لاءم عنوان المقال عالم عوز الأدبي : «شبح صلاح الدين» (٢٨ /٧/ ٢٠٠٠). يجدر التنبه للفوارق الأسلوبية بين المقال الذي كتبه للـ «غارديان» ثلاثة أيام قبل ذلك (٢٥ /٧)، على نفس الخلفية. مهم أن نتنبه كم كان البُعد الدعائي محسوباً :

«اجلس أمام التلفزيون في الصالون، وأرى ياسر عرفات يحظى باستقبال الأبطال في غزة، وكل ذلك لأنه قال لا للسلام مع إسرائيل» (نيويورك تايمز ٢٨ /٧/ ٢٠٠٠).

لم ترتجف يده جراء هذه الجملة. ولن ترتجف في المستقبل كذلك.

«قطاع غزة كله مغطى بالأعلام والشعارات التي تعلن قدوم «صلاح الدين الفلسطيني». «أهلاً وسهلاً بصلاح الدين الجديد»، كتبوا على الجدران (...) تهاوى قلبي بين ضلوعي.» (ن. م).

هكذا إذن، بعد وصف دقيق لعودة «الحربجي»، تنتقل الميلودراما إلى عاموس عوز نفسه، فقلبه ينكسر في الصالون، أمام قطاع غزة المغطى باللافتات (هل شاهد أم لم يشاهد غوش قطيف، نتسريم وكفار دروم، ومخيمات اللاجئين؟) :

«منذ العام ١٩٦٧ وأنا واحد من أولئك الإسرائيليين القلائل الذين أثاروا حل دولتين جارتين مع القدس كعاصمة لهما، واعتراف متبادل وقبول متبادل. منذ ذلك الحين، ولسنوات طويلة، تعاملوا معي كخائن، في صفوف شعبي. تحمل أولادي في المدرسة مختلف أنواع الإهانات، واتهموا بكونهم أبناء من هو مستعد لبيع وطنه». (ن. م).

حقاً، كانت معاناته كبيرة. طفل المؤسسة الإسرائيلية المدلل يبيع الأمريكان كونه شخصاً مطارداً. لكن ما حدث الآن، أن الميلودراما انتقلت من الضحية السلبية لبعض من الوقت (عاموس عوز) إلى البطل الناشط، المخلّص : «وبعد كل هذه السنوات الصعاب ذهب رئيس الحكومة ايهود باراك إلى كامب ديفيد ليعرض الحل الذي تنبأت به قبل أكثر من ثلاثين عاماً». (ن. م)

(وحقاً، لم تكن الضحية سلبية تماماً، فهو أيضاً يتكشف عن مستشار لا بأس به

لشؤون السلام، وأولاده فقط كانوا ضحايا حقيقيين؛ آه، أيها الأب الكبير). وفي كل الأحوال، لا بد من العودة الآن إلى الأيام التي سبقت ثورة المعلومات الكبرى التي غيرت ملامح إسرائيل كلية وحولتها من دولة ملاحِقة للفلسطينيين إلى دولة ملاحقة للسلام :

«أتوقف لكي أفكر. أتذكر كيف كفت في تلك الأيام خلية هاتف عمومي لاحتواء المؤتمر القطري لناشطي السلام الإسرائيليين. أمكننا عدّ أنفسنا بأصابع أيدينا حقاً، أقلية صغيرة داخل أقليات. اليوم تغير كل شيء. أكثر من نصف الأمة معنا» (ن. م)

٤- ماذا يريد الفلسطينيون ؟

لو لم يكن «كيتش» عوز جزءاً من مأساتنا، لأمكن أن نضحك. لكن المسألة أعمق من ذلك، بسبب دوره السياسي. في سياق هذه الحرب، كان طبالاً مهماً. عندما غادر ايهود باراك إلى كامب ديفيد لم يحاول الشخص التفكير مرتين. فدوره ليس دور المثقف الذي يقف جانباً، بل حالاً، وبدون تفكير كثير، وبدافع من الشعور بالشراكة، وبتضامن تام. بإمكانه هنا أيضاً أن يكون «رجل سلام»، وكذلك إلى جانب السلطة وأيضاً أن يقوم بلجم أعداء السلطة «والسلام». كان العنوان على الجدار، بل إنهم تحدثوا عنه داخل حزب العمل (بيريس)، لكن عوز، مثل مثقفي اليسار الصهيوني الآخرين، لا وقت لديهم للنقد. إنهم يريدون المشاركة في «المشروع الصهيوني».

أما أ. ب. يهوشع، الذي لم يدع ليانة بدر تتكلم، تماماً بنفس الطريق التي قطع بها لبطله العربي اللسان في «إزاء الغابات»، ووعدها أن وضعها جيد، لأن لديها شبه رئيس حكومة، فقد «اعترف» بخطأه، عندما اندلعت الانتفاضة. ماذا يعني أن يخطئ؟.

«أعترف أنني لم أفهم ما يريده عرفات. لكن الشعب اليوغسلافي أيضاً سار وراء ميلوسوفتش وحارب لجانبه، وها هو الآن لم يعد موجوداً» («حيرة اليسار»، ملحق «هآرتس»، ٢٠ / ١٠ / ٢٠٠٠).

بالمناسبة، ميلوسوفتش متهم بالمسؤولية عن «تطهير عرقي». من تتم مقارنته هنا بمنفذي «التطهير العرقي»؟ الفلسطينيون بالطبع. أي، أنه أخطأ. والآن، فهو يصحح نفسه.

من هذه الناحية، فإن المقابلة مع أفيشاي مرغليت ومناحم برينكر مثيرة أكثر. إنهما لم يذهبا لإعطاء حديث صحفي فقط لمجرد أن المراسل، الذي هو بنفسه ناشط سابق في «اليسار الصهيوني»، عرض عليهما إجراء مقابلة. لقد اختارا هذه الحلبة، لتسديد الضربة لـ«السلام الآن». لذلك، تم عرضهما في «هآرتس»، عشية سفر باراك إلى كامب ديفيد، وبإسهاب، كمؤسسي «السلام الآن».

في الشهور التي سبقت كامب ديفيد اتخذ باراك له هدفاً مركزياً (بل تباهى أكثر من

مرة بتحقيق هذا الهدف) : تجنيد معارضة شاملة في الغرب لإعلان الفلسطينيين من جانب واحد عن إقامة دولة مستقلة. بعدها تباهى بحقيقة فرض مؤتمر كامب ديفيد على عرفات (ستظل تُذكر لسنين طويلة في الفولكلور الفلسطيني تلك الصورة التي ينجح فيها باراك بدفع عرفات إلى داخل بناية مغلقة، بنوع من المزاح، وأمام الكاميرات). في الإعلام الإسرائيلي، المكان الذي يتحكم فيه «المفهوم ضمناً»، والمستخلص فيه يومياً، «مفهوم ضمناً» إنه إذا كان باراك راغباً بمؤتمر قمة ونجح بفرضه على عرفات، فذلك نجاح، توجب أن نتوقع من مثقفين يبحثون في قضايا الاحتلال هذا العدد الكبير من السنوات أن يتخذوا لأنفسهم موقف الشك. فالأمور تتم بدونهم أيضاً، بدون صوتهم. مقابل ذلك فإن موقفاً نقدياً أمكنه أن يمنح المعارضة المتقلصة من يوم لآخر قوة معينة، هذه المعارضة التي أدركت أن المؤتمر سيؤدي إلى انفجار، لأن باراك لا يملك القدرة لفرض مواقفه على الفلسطينيين.

من خلال الجدل مع اليسار الداعم للفلسطينيين (الجبهة، غوش شالوم، عزمي بشارة وناطقون آخرون عرب في إسرائيل، وقلة في داخل «السلام الآن») أطلّت في هذه المقابلة مع «الفيلسوفين» خيانتهما للحركة، هذه الخيانة التي ستسمى بعد شهرين من ذلك، وفي قلب المذبحة، «حيرة اليسار». هو ذا أفيشاي مرغليت، في البحث عن شرعية لفرض تسوية على الفلسطينيين :

«يمكن أن نبقي في إسرائيل ٧٥ – ٨٠ من المستوطنين فوق ستة ونصف بالمائة من مساحة الضفة، ويمكن ابقاؤهم على ٥٠ بالمائة من مساحة الضفة.(...)

السؤال الوحيد المثير لاهتمامي هل باراك يعرض هناك مواقف تطابق اتفاق بيلين ـ أبو مازن. إذا كان الأمر كذلك ـ «كله تمام». إذا عرض فجأة مواقف أكثر شبهاً بخطة ألون ـ فسيكون مسؤولاً عن فشل القمة. نفس الشيء بالنسبة لعرفات. إذا وافق على ما وافق عليه أبو مازن ـ «كله تمام». إذا طلب أكثر من ذلك بكثير ـ سأحمله مسؤولية الفشل» («هآرتس»، ١٧/٧/٢٠٠٠).

لا أحد يعرف شيئاً واضحاً عن اتفاق بيلين ـ أبو مازن. وحقيقة وجود اتفاق لم تحظ بأي تصديق في أي مكان. حتى حقيقة وجوده خاضعة حالياً للشك. لكن أفيشاي مرغليت يطالب عرفات بقبول الاتفاق كأساس للمصالحة : ليست قسمة البلاد بين الشعبين، بل تقسيم المناطق المحتلة منذ ١٩٦٧ بين الشعبين. هذا هو الحل الوسط الإقليمي الذي تحدث عنه حزب العمل. لهذا كان لا بد لأستاذ فلسفة اللغة من تضييع لياليه في نشاط لأجل السلام وأيامه على مسطحات العشب الأخضر في الحرم الجامعي. أمكنه حالاً الذهاب إلى الانتخابات التمهيدية في حزب العمل. لماذا يولي أهمية لتأكيد اتفاق ١٩٩٥؟ لماذا يولي أهمية للقول في هذه المقابلة أنه يجب العودة لاتفاق بيلين ـ أبو مازن؟.

«الأمر متعلق هنا بشخصين ليسا هامشيين بالمرة في مجتمعيهما، وهما لم يجتمعا في داخل الحصار، وتوصلا لاتفاق. اتفاق يكون مشابهاً، بهذه الصورة أو تلك، لاتفاق بيلين أبو مازن، لن يكون اتفاقاً مفروضاً بأي حال من الأحوال» (ن. م).

يبرز هنا البحث عن الشرعية، من خلال «مراعاة الصوت الفلسطيني». هل هناك حاجة لأن نذكر في هذا السياق أن البروفسور يولي تمير فيلسوفة أيضاً، وناطقة بلسان وفد باراك أيام كامب ديفيد، والناطقة بلسان الحكومة أيام المذبحة، وهي أيضاً صاحبة مؤلفات في التعددية الثقافية، ومن دافعت حتى عن حق الأقليات بختان نسائها؟ نعم، هناك حاجة. أبرز تلميذين في إسرائيل للسير يشعياهو برلين لامَسا لُبَّ المسألة، وكلاهما، في اللحظة الحاسمة، اختارا جانب القوة، وأيدا انكار حق الفلسطيني بإسماع صوته. «الأمر متعلق هنا بشخصين ليسا هامشيين بالمرة في مجتمعيهما»، يشرح مرغليت أساس الشرعية. اذهب وقل ذلك للأشخاص الهامشيين في المجتمع الفلسطيني، للفتية من مخيمات اللاجئين، لأشكال البط في المرمى العسكري، إن مرغليت تخلى عنهم، باسم الإصغاء لـ«شخصين ليسا هامشيين بالمرة في مجتمعيهما، لم يجتمعا في داخل الحصار».

أعطيت هذه المقابلة في الأساس للغمز في قناة «السلام الآن»، التي انشغلت في السنوات الأخيرة فقط في تتبع توسيع المستوطنات. يختبئ مرغليت خلف صيغة أبو مازن ـ بيلين، لكي يتحدث عن «ابقاء غالبية المستوطنين في أماكنهم». برينكر يخز بقوة أكبر. لم يعد لديه المزيد من الوقت للاشتغال بالصراع اليومي المرير ضد المستوطنات، هذا هو الشيء الوحيد الذي قامت به هذه الحركة الغنية الموارد والفقيرة بالناشطين في السنوات الأخيرة. وهكذا جاء في التقرير :

«الخطوط الحمراء التي عرضها باراك قبل مغادرته إسرائيل مقبولة لدى برينكر بكاملها. ضم كتل استيطانية، يقطن فيها معظم المستوطنين الموجودين اليوم في الضفة الغربية، لا يناقض برأيه تطلعات الحد الأدنى للفلسطينيين ولا يمس باحتمالات إقامة دولة فلسطينية مستقرة. بل إن برينكر مستعد للابتعاد كثيراً والقول إن رأيه هذا مقبول على الفلسطينيين أيضاً». «لو فكروا بيميت»، يقول «لما ذهبوا إلى أوسلو من الأساس. كل فلسطيني قدم لأوسلو أدرك أن سابقة يميت لن تكرر نفسها في الضفة الغربية». (نفس المصدر).

كم هي شبيهة هذه الصياغة بما قاله مرغليت بخصوص اتفاق أبو مازن ـ بيلين. مرغليت بحاجة لشائعة عن صيغة، لكي يرسخ ادعاء ما بخصوص الشرعية، لكي يجادل في ما سيحدث بعد فشل القمة (ومن الواضح لكليهما أن الفشل متربص بالباب، وهو ما أوحت به كل كلمة في المقابلة). برينكر ليس بحاجة بالمرة للأساس «القانوني» لدى الفيلسوف التحليلي. فهو ظواهري، وحتى أنه تعلم هايدجر في الآونة الأخيرة.

لذلك يحق له الاشتغال بالتكهنات. من الصيغتين، «القانونية» والافتراضية، تتصاعد نفس الرائحة الكولونيالية : «نحن نعرف ماذا يريدون». يواصل المراسل النشيط اقتباس برينكر : «دائماً اعتبرنا المستوطنات عقبة أمام السلام، وعليها ركزنا باستمرار انتقاداتنا»، يضيف في غمز نحو زملائه في السلام الآن، الذين ركزوا خلافاً لرأيه جل اهتمامهم في السنوات الأخيرة في المستوطنات ـ «الآن يتضح أن الفلسطينيين يتعاملون مع المستوطنات بشكل مختلف تماماً. إنهم لا يرون بها عقبة للسلام ولا يطالبون باخلاء جميع المستوطنات» (ن. م).

إلى هذا الحد. لا توثيق لديه، بل له تصورات من «لديه تماسك في الشخصية»، وذلك يكفيه. بواسطة هذه الأداة ـ «تماسك الشخصية» ـ يمكنه أن يسدد نحو «السلام الآن». ويواصل المراسل المؤيد:

«في الأسبوع الماضي تذكر برينكر فجأة لقاءً اسرائيلياً ـ فلسطينياً جرى قبل عشرين عاماً في جامعة هارفارد في الولايات المتحدة. كان في الوفد الإسرائيلي إلى جانب برينكر كل من اريه لوبا الياف وماتي بيلد، وكان ضمن الجانب الفلسطيني الأساتذة ادوارد سعيد ووليد خالدي». (ن. م).

انظروا إلى عجائب الوعي الوجودي، ففي السنين التي عارض خلالها برينكر، البروفسور في الجامعة العبرية، وفي جامعة شيكاغو، المستوطنات، وحتى عندما تجند لنشاط في صندوق من أجل سلوان، استقرت في قعر وعيه الحقيقة المنسية، تلك الذكرى الغابرة، من هارفارد:

«تحدثنا نحن الاسرائيليين، عن ابقاء المستوطنات، ومنذ تلك الأيام كان هناك فلسطينيون لم ينفروا من ذلك» (ن. م).

إنهم «لم ينفروا من ذلك». إنه ـ بعد كل هذا النقاش المتشعب، وبعد كل هذه الصياغات عن الموضوعي والإنتقائي، وبعد كل الأقوال المرتفعة عن تفضيل السلام الميداني على العدل «على الورق» ـ إنه جوهر الصوت الفلسطيني : «لم ينفروا من ذلك». كيف لم ينفروا؟ هزوا رؤوسهم علامة الموافقة؟ شدوا أكتافهم؟ اشمأزوا؟ أم أن هذا التغيير في حالة ذاكرة أكبر أنصار سارتر في إسرائيل متصل بالذات بالقائد الجديد، ايهود باراك؟ ولعل هذه الذاكرة المتأخرة متصلة بـ «جدول الأعمال» القومي الكبير، الذي لا يستطيع المثقف الصغير الوقوف بوجهه؟

بعد أن بدأت الحرب، لو كان هناك صحفي نشيط وليس دعائياً بنفسه، لكان ملزماً بالعودة للإثنين وسؤالهما : أين كان خطأهما ؟ لكنه لم يفعل ذلك. الأول فضل بطبيعة الحال السكوت في مستودع العسل في جامعة شيكاغو، والثاني أفيشاي مرغليت، ضم صوته لـ «حيرة اليسار»، وتطرق ـ وهل يمكن ألا يفعل؟ ـ بالذات لـ «رغبة الفلسطينيين»، باعتبارها «تكهن بالحالة»، وهي الإرادة ذاتها التي لم تهمه من قبل،

في مرحلة «تشخيص الحالة» :

«يمكن للفلسطينيين العيش، ولو بصعوبة، مع أشياء نفرضها عليهم ولكن المؤكد أنهم لا يستطيعون التوقيع عليها. هذا ما اتضح لنا في الحقيقة. النظام الذي يتضمن اعلاناً موقعاً بأنها نهاية الصراع تكشّفَ أنه مستحيل. تبين أن عرفات لم يرغب بالوصول إلى نهاية الصراع، ضمن الشروط المعروضة، حتى بدون صلة بتحديدها. تبين أنه أمر لا يمكنه أو أنه لا يريد القيام به. («حيرة اليسار»، ملحق «هآرتس»، ٢٠ / ١٠ / ٢٠٠٠).

وكان لدى دان ميرون أيضاً معرفة واضحة بـ «ارادة الفلسطينيين»، أي ماذا يقول الصوت الفلسطيني «بالفعل». هكذا يتشكل الصوت الفلسطيني في مقاله الدعائي، بعد أن تصدعت صدقية الحرب والإستعداد الإسرائيلي البعيد المدى لإعادة كل شيء، باستثناء «بعض المصالح الحيوية». هذا هو تفسير عدالة الحرب الحالية، أي أكثر الحروب التي شهدتها إسرائيل منذ ١٩٦٧ عدلاً، على الأقل :

«قررت السلطة الفلسطينية أنها ستتوصل إلى إخلاء المناطق والإعلان عن إقامة دولة بدون اتفاق مع إسرائيل. سيتم الإخلاء كما تم في لبنان، بطريق العنف ويضغط دولي. سوف تعمل الحجارة والرصاص والصحافة الدولية ولجان التحقيق وجيش الأمم المتحدة على خلق واقع تبقى فيه إسرائيل بدون المناطق، وبدون السلام وبدون اتفاق ينظم المسائل المشتركة بينها وبين فلسطين ضمن مطالب جديدة : كل القدس «العربية» التي من قبل ١٩٦٧، وتطبيق حق العودة الخ الخ». («علامَ الصراع»، «يديعوت احرونوت»، ٢٤ / ١٠ / ٢٠٠٠).

توثيق لهذه التكهنات المنفلتة؟ لا يوجد. مرة أخرى تختفي من هذا الوصف الحواجز، والتقييدات على السير، والمستوطنات، والعطش، والاحتلال الذي ترك خلفه خراباً تاماً للجهاز العام (طيلة الـ ٣٣ عاماً لم يبن مستشفى واحد في المناطق المحتلة، ولم يتم شراء باصات جديدة، ولم تمدد خطوط مياه جديدة الخ)، وعموماً، لا مصالح مباشرة، وبسيطة، لجموع الشبان في الخروج في مواجهة القناصة الإسرائيليين. مقابل ذلك، يوجد لدى ميرون خوف واحد : توسيع القدس العربية غرباً و «حق العودة»، أي الخوف من الاختراق، لذلك:

«فإن الرد الإسرائيلي حتمي. جنود جيش الدفاع يضطرون لإطلاق النار (رصاص مطاطي) لأن إسرائيل ملزمة بخوض صراع على مبدأ إخلاء مناطق في إطار اتفاق سلام شامل. والفتية الفلسطينيون، سواء كانوا يائسين أو مستثارين، فإنهم من ناحية موضوعية، منفذو سياسة مرسومة، تسعى لإنشاء دولة فلسطينية لم تسلم باسرائيل ولم تتنازل عن مطالبها تجاهها. إسرائيل مضطرة لأن تمنع بالقوة تطبيق سياسة كهذه». (ن. م).

عدا عن العبث بالأفكار الجنونية كحالة من فقدان السيطرة، ما الذي يدفع إنساناً مثل دان ميرون للكذب على صفحات صحيفة إسرائيلية، عندما يؤكد بين قوسين، وعلى مسامع القارئ الإسرائيلي، حقيقة أن الجنود يطلقون «رصاصاً مطاطياً»؟ (دائماً كتبت الصحافة الأمريكية التي يقرؤها «رصاصات فولاذية مغلفة بالمطاط»). ما الذي يدفع إنساناً للشد على أيدينا من مسافة عابرة للمحيطات؟ ما الذي يجعله يقول لنا «لا مناص، يجب قتل الفتية الصغار لأنهم يريدون دولة تملك متطلبات تجاه اسرائيل»؟ الإجابات على ذلك، عندما لا تكون متصلة بجوهر هذا الشخص أو غيره، بفلان كاذب مرضي، أو بعلان المعجب الكبير بجنرالات الجيش، الإجابات كامنة في الخوف من انهيار «النظام»، الذي فيه نحن من يحدد جدول أعمال اليهود والعرب. يحدّث عاموس عوز على القراء الأمريكان عن رد الفلسطينيين على سخاء ايهود باراك:

«مع ذلك قال الفلسطينيون لا. إنهم متمسكون بـ «حق عودتهم» بينما نعرف كلنا جيداً أن ما يحيط بـ «حق العودة» كونها كلمة عربية خالصة لإبادة دولة إسرائيل.

لا يتمسك السيد عرفات فقط بالحق بالدولة الفلسطينية، وهو حق أؤيده بالكامل. الآن يطالب أن يعود المغتربون الفلسطينيون لا إلى فلسطين فحسب، بل لإسرائيل أيضاً، وبذلك تختل المعادلة الديموغرافية، ما يحول إسرائيل في نهاية المطاف إلى الدولة العربية السادسة والعشرين. هناك ملايين الألمان الذين لن يعودوا أبداً الى بيوتهم السابقة في بولندا، شرق بروسيا أو إقليم الوديت.

للفلسطينيين الحق بفلسطينهم مستقلة. لكن إذا كانوا راغبين بالحصول على إسرائيل أيضاً، عليهم أن يعرفوا أنهم سيجدونني مستعداً للدفاع عن بلادي: ناشط قديم في السلام الآن مستعد للقتال دفاعاً عن وجود دولة إسرائيل. إنني واثق بأنها الفرصة الأخيرة. على الفلسطينيين أن يختاروا إذا ما كانوا يريدون صلاح الدين الجديد أو العمل بالفعل من أجل السلام». (نيويورك تايمز، ٢٨ /٧/ ٢٠٠٠).

انتبهوا للتاريخ : المقال لم يكتب إبان المعارك. كتب بعد فشل المؤتمر. إنه لا يتطرق من قريب أو بعيد لما يسمى النقاش مع الموقف الفلسطيني. إنه لا يدخل بالتفاصيل. إذ أن استنتاجات عاموس عوز ليست «مناورة» فحسب، لأنه بالفعل أديب استنتاجي، لا يهتم بالتفاصيل، ويرتكز على «المفهوم ضمناً». إنه يبني فزّاعة (انهارت قمة كامب ديفيد بسبب المطالبة بحق العودة). إنه يحول الفزاعة إلى «إبادة دولة إسرائيل». انظروا التوسع في هذه التفاصيل عن الإبادة. انتبهوا كيف أن عوز اختار في تلك الأيام الامتناع عن بيع البريطانيين هذه الترهات. في أكسفورد أو كامبردج، يبدو ان ادعاء ديماغوجيا كهذا يشعرهم بالمهانة.

٥- وهنا تدخل عريضة الأدباء

عندها، وفي السابع عشر من نوفمبر، بعد أكثر من مائتي قتيل فلسطيني، وبعد أن انتهى الدعائيون الإسرائيليون من اقناع الرأي العام العالمي، وبعد أن أخذت سياسة باراك الإسرائيلية تغوص في دماء الإسرائيليين، وليس الفلسطينيين فقط، وبعد أن نجحوا بالصمت في كل ما يتعلق بجرائم الحرب، صدر بيان لمفكرين من اليسار الصهيوني، على شكل إعلان ممول من طرف خفي، احتل مساحة كبيرة في الصحيفة وجاءت صياغاته السياسية ملتوية، لكنه يبلغ ذروته بالمطالبة بتفكيك المستوطنات، وفي صلبه هذا الموقف الحاسم التالي :

«لم تفكك حكومة باراك أية مستوطنة. بل بذلت أكثر من حكومة نتنياهو في تطوير المستوطنات وتكبيرها (...) ابقاء المستوطنات في أماكنها أو توسيعها يحول دون أية إمكانية لمد خط حدود منطقي بين اسرائيل وفلسطين. وهو ما يعني من الناحية العملية تخليد النزاع» («أوقفوا التدهور»، إعلان في «هآرتس»، ١٧ / ١١ / ٢٠٠٠).

وقّع على هذه العريضة كتّاب مثل يهوشع كناز، س. يزهار، ايلي عمير، حاييم بئير، بعد أن تمكنوا من ضبط النفس والامتناع عن قول كلمة واحدة علناً منذ بداية المذبحة في صفوف الفلسطينيين، وبطبيعة الحال وقعته أيضاً تلك الفئة التي من الأفضل لنا جميعاً لو أغلقت أفواهها، مثل أ. ب. يهوشع (نعجز عن اقتباس أحاديثه المطولة مع الإذاعي عميكام روطمن)، عاموس عوز، وكذلك الشاعر نتان زاخ. عندما تدافعوا جميعاً ليكونوا «حيرة اليسار» تدافع هو الآخر، وأعلن في «هآرتس» المزاعم الثابتة كلها [٤]. والآن تغيرت الصورة. «لماذا، ما الذي حدث؟»، «لماذا، من المتوفى؟».

بعد مرور شهرين ونصف من القتل وصل هذا الصالون الأدبي النقال، بمن فيهم الأعضاء الثابتون في الرحلة (نسيم كلدرون، رونيت متالون الخ)، لقول ما كان يجب قوله قبل كامب ديفيد، قبل الثلاثمائة قتيل، وقبل آلاف الجرحى، وقبل مئات المعوقين تماماً. لو لم أعرف هذا المشهد منذ اليوم الأول لحرب لبنان، لما كبدت نفسي عناء هذه المقالة المطولة. لم تكن لعريضة الأدباء (التي نظمها بجهود جبارة دافيد غروسمن، الذي لم يخن للحظة أصدقاءه الفلسطينيين خارج الخط الأخضر، وأصرّ على التحدث كل الوقت عن حل وسط في منتصف البلاد، وليس في منتصف الضفة؛ تلك العريضة التي موّلتها «السلام الآن»، أو ما فاض عن حساب البنك الضخم) قيمة كبيرة في المرحلة التي نشرت فيها. كذلك حركة «ميرتس»، الحزب الذي مصوتوه هم المستهلكون المركزيون لمقالات من النوع المقتبس هنا، للمقابلات الاذاعية والتلفزيون التي لم تقتبس هنا ـ هذه الحركة نزلت إلى العمل السري، وتركت زهافا غلئون لتكون مهرجة «معسكر السلام». اختفى يوسي سريد (الذي سبق أن قيل عنه إنه «يسكن في الإذاعة»)، كأن وجوده مرهون بالمجابهة مع «شاس»، وقد عاد حقاً للشاشة بعد أن عادت قضايا

بحجم الميزانية المعطاة لـ «شاس» لإشغال المجتمع السياسي. جاء الإعلان متأخراً فلم يتمكن من التصدي لكرنفال القتل والخراب، ووسط بحر من العرائض والبيانات التي سبقته، لم يكن هو الوسيلة الصحيحة ـ لو كانت هناك رغبة بالقول: «اللعنة، أخطأنا» (ولكن من منهم أخطأ مرة؟) ـ لوقف أعمال القتل. كان هذا الإعلان مجرد مؤشر على «الركض في ساحة خراتيت». ولم يكن بمقدوره أيضاً أن ينقض شيئاً من كل ما قلناه «كلنا». «كلنا» قلنا إن عرفات مذنب وباراك يريد السلام. «كلّنا» قلنا إنّ كلّ شيء عرض عليهم. «كلّنا» قلنا إنّهم لا يفهمون ما يخسرونه. والآن، فجأة، هكذا، بلا سبب، «كلّنا» نقول إنّ باراك إستثمر في المستوطنات أكثر ممّا لو استثمر نتنياهو. قلنا ؟ طيّب، قلنا ! «وشو يعني» ؟

لماذا لم تعرفوا بذلك من قبل ؟ لأنّكم لم تهتموا بذلك من قبل. لماذا لم تهتموا بذلك من قبل ؟ لأنّ الفلسطينيّين وجحيم حياتِهم لم يهمكم أبداً. لأنّ الإحتلال فقط «يفسدنا»، وإذا لم نسمِّ الإحتلال إحتلالاً، فلن يكون إحتلالاً، بل جزءاً من منظومة رمزيّة نقوم نحن بترسيخِها، وبكلمات أقلّ بريقاً : نحن النّاطقون بلسان النّخبة الحاكمة في دولة إسرائيل. عندما يكون الليكود في السّلطة، نكون مع السّلام وضد اللّيكود. حتى ذلك الحين فإنّ دورَنا هو الكذب.

وشربت الأرض المحتلّة دماً، وكفّ الدم عن أن يكون فلسطينيّاً فقط، ومن خلل الجرح المفغور أطلّ الحقيقي، وأجبرهم على الإهتمام فجأة بشيء ما أبعد من «المفهوم ضمناً»، أبعد من الكذبات السابقة. ولعلّه لم يبزغ شيء، بل كانت هناك حاجة لمراكمة «إعلان» حمائمي واحد للسنوات القادمة، عندما سيضطر عاموس عوز أو أ.ب. يهوشع الرد على السؤال : «ماذا فعلت عندما ذبحوا فتية فلسطينيّين ؟». عندها سيستخرج أحدهما، الدعائي (أ) أو (ب) هذا الإعلان ويقول : «كنت ضد. ها هو». من جهة ثانية، إذا كان عاموس عوز مصدقاً لما كتبه بنفسه في «غارديان» وفي «نيويورك تايمز»، فكيف أمكنه التوقيع على عريضة كهذه التي من السابع عشر من نوفمبر ؟ وإذا كانت الحقائق التي وقّع عليها في السابع عشر من نوفمبر صحيحة، هل يمكنه التحدّث بشكل مختلف عن الحرب القذرة ؟ وبكلمات أخرى : هل معنى «النذير على الأبواب» إنّه كذاب، أو ديماغوجي؟ يبدو أنّه كذلك. وممنوع أن نخطئ بشأن هذا الإعلان : فالفقرة الختاميّة فيه تؤكد، بعد كل ما جاء فيه، «نحن نناشد القيادة الفلسطينيّة لتسوية النزاع ليس بالعنف». لا تخطئوا بذلك. إنّه ليس إرضاء للعين القارئة. هذا هو الوقوف خلف «شرعيّة» العسكري. هذه هي الجملة التي تضمن شرعية نشاط الجيش، والحصار على القرى، والدبابات عند مشارف المدن، وإطلاق الرصاص اليومي على المتظاهرين، وتصديق الجرائم : «نحن نناشد القيادة الفلسطينيّة لتسوية النّزاع ليس بالعنف». إنهم عنيفون حقاً. الجيش يقوم بكل مما يقوم به لأنّهم عنيفون. هذا هو المعنى الحقيقي

لهذا الموقف. مهما كان مصير المستوطنات، فهو ليس متعلّقاً بنا، أم أنّه حقاً متعلق بنا. ذلك يتعلّق بالمزاج. لكن، بكل ما يتّصل بالجيش، فلن نستمد الشرعيّة أبداً من مكانته كمدّعٍ وقاضٍ وجلاّد. هذه روحنا القتاليّة من وراء ظهرِ الجندي، المكتوب على خوذتَه born to kill (وُلد ليقتل).

٦- شبح ١٩٤٨

لم يكن أي حديث متعجرف أو مغرور كهذا الذي يتمتّع به عاموس عوز، من النّوع الذي صاغه برينكر كما لو كان «مسجل تاريخ في البلاط»، ممكناً، ولو تحوّل الوعي بالجرائم ضد الفلسطينيّين ليصير جزءاً من تراث اليسار الإسرائيلي، لما جرؤت أيّة حركة سلام على توجيه الدعوة لهؤلاء الأشخاص للتحدّث بإسمها، ولو جرت أيّة محاولة لدى اليسار اليهودي للإنقطاع عن ماضي الدولة الكولونيالي، ولو بذلت جهود للنّظر في هذا الماضي والقول إنّنا لسنا ملزمين تجاه هذا الميراث، الذي أوصلنا إلى هنا. هذا هو عملياً الخط الفاصل بين من عارضوا الحرب من اليوم الأول وبين من «ارتبكوا»، و«حذروا»، وأيّدوها. الحديث هنا لا يدور عن «مشاعر الذنب»، أو «الشعور بالمسؤولية»، بل بالإصغاء للصّوت الفلسطيني، الذي هو جزء من الحل، وليس فقط جزءاً من النزاع. في المقابلة الخفيفة التي منحها مرغليت وبرينكر لـ «هآرتس» قال مناحم برينكر :

«لا يمكن لإسرائيل بأيّ حال من الأحوال قبول المطلب الفلسطيني بخصوص مسؤوليتها القانونية والأخلاقية عن خروج اللاجئين. ما يطالب به الفلسطينيّون هو مسألة من إختصاص المؤرّخين، لا السياسيّين. ماذا يريدون ؟ أن يتحدّد في مفاوضات سياسية عدد الفلسطينيّين الذين طردتهم إسرائيل وكم كان عدد المغادرين بمحض إرادتهم لكي يعودوا مع الجيوش العربيّة المنتصرة؟ هذا سؤال من إختصاص بيني موريس، لا ايهود باراك» («أخلاق البراغماتية»، ١٧/٧/٢٠٠٠).

كل عنصرية المثقف الصهيوني قيلت عبر هذا النص القصير. مخيمات اللاّجئين في الضفة أو لبنان ليست مشكلة سياسيّة. إنّها جزءٌ من كتب التدريس. سنتحدث عنها في «فان لير»(*). مَن بحاجة لأن يجابه، مثلاً، هذه القضية السياسية في لبنان ؟ سياسيّون أم مؤرّخون ؟ ومن بحاجة للتحدّث عن لم الشمل ؟ مؤرّخ أم سياسي ؟ وبأثر من ذلك، من سيكون المؤرّخ ؟ يهودي، بالطبع، كما قيل : «هذه مسألة من إختصاص بيني موريس، لا ايهود باراك». القضية تبقى دائماً بأيدي اليهود، أي أنّه لا وجود لصوت فلسطيني حتى في إستيضاح المسألة التاريخيّة.

٧- هذه ليست النهاية

عندما ينتقد يساريون «اليسار الصهيوني» يجابهونهم بادّعاءات مثل «لماذا تتخاصمون مع أقرب المقرّبين إليكم وليس مع اليمين ؟». الحقيقة معكوسة بالطبع. فالسبب الذي دفع ايهود باراك لاستنفار مساعدة مثقفي «اليسار الصهيوني» لجانبه، قبل كامب ديفيد، وبعد كامب ديفيد وفي زمن الحرب، هو بالضبط الرغبة بكم أفواه «المتطرّفين» هنا وفي الخارج. لماذا يحتاج عاموز عوز لأن يضيف إلى كتابته في الخارج اللّقب «من مؤسّسي السلام الآن» ؟ بالضبط لأنّ المقال يرمي لكم الأفواه، داخل المجموعة الثقافيّة في الخارج، أو هنا، لمن يعتقدون أنّ باراك خطرٌ على السلام.

من المهم أن ندير ظهرنا لمن تتوجّهم الصحافة بشكل عام بأنّهم «يسار». الصحافة هي صاحبة المصلحة. كانت مصلحتها عدم نشر أيّ حرف عن نشاطاتنا السياسيّة المتعاظمة، منذ بداية هذه الحرب. لسنا جموعاً غفيرة، بل مئات وحتى آلافاً. قوموا بإحصاء العرائض، الصغيرة، الدقيقة، والثمينة، وعودوا إلى لقاء المحاضرين المائة من جامعة تل أبيب، مباشرة بعد يوم الغفران، وهو اللقاء الذي بدأ النّشاط في جامعة تل أبيب وحيفا وبئر السبع، عودوا للحظة للمظاهرات في باحة المتحف في تل أبيب، والمظاهرة الكبرى في حيفا، والمظاهرات في القدس، ونشاطات منظمات النساء، والصلة بين مجموعة نشاط من تل أبيب وقرية حارس في الضفة، لتتبيّنوا أنّنا، في اليسار الراديكالي، عائشون وموجودون، حتى لو كانوا يشطبوننا في الصحافة الغربيّة وحتى في الصحافة التي نقرأها ونكتب بها. الصوت الممحو ليس ممحواً بسهولة. فالفتية من رام الله، الذين أسماهم زاخ بـ«العامّة»، وأطلق عليهم دان ميرون، قرينه العجوز، صفة «اليائسين أو المستثارين»، نجحوا على الأقل بشيء واحد، حتى الآن، وهو تذكيرنا بأنّ الحقيقة ليست محصّلة كل ما كتب في الصحيفة.

عندما اختتم هذه الأقوال، فإنّ الأحداث في المناطق المحتلة، وضمن ذلك القتلى الفلسطينيون، هذا عدا الحصار الشديد والنّقص في المال والموارد والأدوية، وقطع الأشجار بأيدي المستوطنين والجيش، وهدم البيوت بأيدي الجيش، كل هذه الأمور ليست مغطاة أبداً، لا في وسائل الإعلام الإسرائيليّة، وتقريباً ليس في وسائل الإعلام في العالم. هذه الجرائم تكبر. وسندفع جميعنا ثمن ذلك.

٢٠٠٠/١٢/١
ترجمة : محمد حمزة غنايم

اشارات:

(١) إلى زميلتي هالة ناصر، ابنة بيت جالا، أهدي هذا المقال. استضافتني أمها في بيت عائلتها الجميل في صيف ١٩٩٦، عندما لم تكن هناك مياه في البلدة، وللتجول فيها كان لا بد من المرور عبر الحاجز، من منطقة C إلى B. هذا البيت، كبقية بيوت الحي الجميل، الذي سلبه شارع الأنفاق طبيعته الجميلة (دون سؤال سكان البلدة عن رأيهم فيه)، تهدم، كما تناهى إلى مسامعي، بنيران متفجرات الجيش الإسرائيلي. لماذا أجدني أقدّم لهالة مقالاً بالذات ؟ لأن هذا كل ما أملك تقديمه الآن لها، ولأبناء شعبها.

(٢) هناك شبه كبير بينه وبين أسطورة «الرابيّين» : وبقدر ما تنطوي عليه هذه الأسطورة من تحقير لرابين نفسه كشخص مركّب، فإنها تمثل في الأساس الحاجة لشرح عملية أوسلو باعتبارها «هزة أرضية وضعت حداً لماضٍ احتلالي طويل». بما أن اتفاقية أوسلو لم تضع حداً للاحتلال، ترتفع قيمة الأسطورة، بعلاقة عكسية لأهمية الإتفاقية.

(٣) مرة حاول نقض ما كتبه نعوم تشومسكي عن مذبحة الرجال في مخيم لاجئين في قطاع غزة في ١٩٥٦، قالت له «مصادر عليمة بالأمور» إن جميعهم «كانوا فدائيين». جرى الجدل على صفحات «نيويورك ريفيو أوف بوكس».

(٤) نتاخ زاخ : «ايهود باراك ـ «الشخص الذي كان مستعداً للابتعاد كثيراً في تنازلاته لعرب المناطق المحتلة ـ لو صدقنا ما نشر في الصحافة ولم يتم انكاره ـ أكثر من أي رئيس حكومة سبقه». عرفات؟ «ما لم ينجح اليمين الإسرائيلي المتعصب حدَّ الجنون بالحصول عليه في كل هذه السنوات بقواه الذاتية، تمكن الآن، وبمساعدة متواصلة من «الريّس» وحلفائه القدامى ـ الجدد : «حماس»، الجهاد الإسلامي، والعامة المنفلتة في رام الله وأريحا، وجاك شيراك» («حيرة اليسار»، «هآرتس»، ٢٠ / ١٠ / ٢٠٠٠).

(*) ڤان لير- مؤسسة بحثية في إسرائيل.